المطلب العشرون
خروج صيغة النِّداء عن معناها الأصلي

وقد يستعمل النِّداء في غير معناه مجازًا في مواضع، فمن ذلك:

١ – تنزيلُ البعيدِ منزلةَ القريب:

إنَّ أصل النِّداء بـ (يا) أن تكون للبعيد المتوسِّط البعد حقيقة أو حكمًا –كما سبق بيان ذلك–، وقد ينادى بها القريب لنكت منها:

أ. إظهارُ الحرص في وقوعه على إقبال المدعوِّ:

نحو: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ﴾ [القصص:٣١].

ب. كون الخطاب المتلوِّ معتنىً به:

نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

ج. قصد تعظيم شأن المدعوِّ:

نحو: ﴿يَا رَبِّ﴾ [الفرقان:٣٠].

د. قصد انحطاطه:

كقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢][(١)].

(١) بتصرُّف عن (الإتقان) (٢/٢٢٣).

٢ – خروج ألفاظ النِّداء عن معناها الأصليِّ إلى معانٍ أخرى تفهمُ من السِّياق بمعونة القرائن:

فمن ذلك:

أ. التَّحسر والتَّوجع:

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٣].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢]. إنَّ تقليب الكفَّين وعضُّ اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كناياتٌ عن الغيظ والحسرة؛ لأنَّها من روادفهما، فتذكر الرَّادفة، ويدلُّ بها على المردوف، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السَّامع عنده في نفسه من الرَّوعة ما لا يجده عند لفظ المكنَّى عنه. وتقليب الكفَّين حركةٌ يفعلها المتحسِّر، وذلك أن يقلبهما إلى أعلى ثمَّ إلى قبالته تحسُّرًا على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنَّة. فهو كنايةٌ عن التَّحسر[(١)].

ومن ذلك الآيات التالية:

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم:٢٣].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨][(٢)].

﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥][(٣)].

﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠][(٤)].

---

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٥/٣٢٧)..، وانظر: (٢٣/٨).

(٢) انظر في بيان ذلك: المصدر السابق (٢٢/٢١٠).

(٣) انظر في بيان ذلك: المصدر السابق (٢٩/١٣٥).

(٤) انظر: المصدر السابق (٢٩/١٣٦)، وانظر: روح المعاني (٣٠/٢٢)، البرهان في علوم القرآن (٢/٣٢٥)، الإتقان (٢/٢٢٢ –٢٢٣)، وانظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسُّيوطي (٢/٣٢).

﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤].

وكذلك يقال في (نداء الحسرة) وقد سبق في غير موضع..

وذلك كما في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿قَدْ خَسِرَ الذينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]. فقولهم: ﴿يَا حَسْرَتَنَا﴾: "نداءٌ مقصودٌ به التَّعجُّب والتَّندُّم، وهو في أصل الوضع نداءٌ للحسرة بتنزيلها منزلة شخص يسمع ويُنادي ليحضُر. كأنّه يقول: (يا حسرة احضري فهذا أوان حضورك). ومنه قولهم: (يا ليتني فعلت كذا)، و(يا أسفي أو يا أسفًا)، [وقد سبق بيان ذلك أيضا في ثنايا البحث]. وأضافوا الحسرة إلى أنفسهم؛ ليكون تحسُّرهم لأجل أنفسهم، فهم المتحسِّرون والمتحسَّر عليهم، بخلاف قول القائل: (يا حسرة)، فإنَّه في الغالب تحسُّر لأجل غيره، فهو يتحسَّر لحال غيره؛ ولذلك تجيء معه (على) التي تدخل على الشَّيء المتحسَّر من أجله داخلة على ما يدلُّ على غير التَّحسُّر، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠]. فأمَّا مع (يا حسرتي) أو (يا حسرتا) فإنما تجيء (على) داخلة على الأمر الذي كان سببا في التَّحسُّر كما هنا: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾. ومثل ذلك قولهم: (يا ويلي)، و(يا ويلتِي)، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ [الكهف:٤٩]"[(١)].

ب. الاختصاص[(٢)]:

وهو ذكر اسم ظاهر بعد ضمير؛ لبيانه، نحو قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود:٧٣]. والحاصل أنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ في نصبه وجهان:

أحدُهما: أنَّه مُنَادَى.

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٧/١٩٠).

(٢) بيان ذلك أنَّ النِّداء تخصيص المنادى بطلب الإقبال. فجرِّد عن طلب الإقبال، واستعمل في تخصيص مدلوله من بين أمثاله بما نسب إليه.

والثَّاني: أنَّه منصوبٌ على المدح[١]. وقيل: على الاختصاص[٢].

قال أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: وبينهما فرقٌ، ولذلك جعلها (سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ) في بابين[٤]، وهو أنَّ المنصوب على المدح لفظٌ يتضمَّنُ بوضعه المدح، كما أنَّ المنصوب على الذَّمِّ يتضمَّن

بوضعه الذَّمَّ، والمنصوب على الاختصاص يقصدُ به المدح أو الذَّمُّ لكنَّ لفظه لا يتضمَّنُ بوضعه ذلك، كقوله:

(بِنَا تَمِيمًا يُكْشَفُ الضَّبَابُ)[٥].

وفي (المحرَّر..) "كأنَّه ميَّزَ النَّصب على المدح بأن يكون المنتصب لفظًا يتضمَّن بنفسه مدحًا، كما تقول: (هذا زيد عاقلَ قومه)[٦]. وجعل الاختصاص إذا لم تتضمَّن اللَّفظة ذلك كقوله ﷺ: ((**إنَّا معاشرَ الأنبياء**)). قال القاضي أبو محمَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يكون الاختصاص إلا بمدحٍ أو ذمٍّ لكن ليس في نفس اللَّفظة المنصوبة"[٧].

---

(١) فيقدَّر: أمدح أو أعني.

(٢) فيقدَّر: أخص.

(٣) البحر المحيط (١٨٤/٦).

(٤) انظر: الكتاب، لسيبويه (٢٣١/٢ – ٢٣٣)..

(٥) عزاه في الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الجُمَل) إلى رؤبة ابن العجَّاج، وهو من بني تميم، انظر: الجُمَل في النَّحو، للخليل (٩٤/١)، وهو أيضا من شواهد سيبويه في (الكتاب) (٢٣٤/٢)، خزانة الأدب (٣٦٦/٢)، وانظر: ديوان رؤبة (ص:١٦٩)، همع الهوامع (٣١/٢)، الرَّضي على الكافية (٤٣٢/١)، توضيح المقاصد (١١٥٠/٣)، ابن يعيش (١٨/٢)، الأشموني (١٨٣/٣)، ابن عادل (٢٤٨/٢)، (٥٢٨/١٠) (٥٢٩/١٠)، البحر المحيط (٤٥٩/١)، (٢٤٥/٥)، روح المعاني (١٠١/١٢). والشَّاهد أنَّه نصب (تَمِيمًا) على الاختصاص. فقوله: (تميمًا): اسم منصوب على الاختصاص، أي: أخصُّ تميمًا، وقد أُتِي به بعد ضمير المتكلمين: (نا)، فأزال غموضه، وبيَّن المراد منه.

(٦) أي: وفي الاختصاص لا يقتضي اللَّفظ ذلك، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فيمن نصب ﴿أَهْلَ﴾.

(٧) بقليلٍ من التَّصرُّف عن (المحرَّر الوجيز) (١٩١/٣).

ج. التَّعجب:

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود:٧٢]. وقد سبق بيان ذلك.

وكقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠][(١)].

د. التَّمني:

﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصص:٧٩].

هـ. التَّنبيه:

ومثَّلَ له الزَّركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـذَا﴾ [مريم:٢٣]؛ لأنَّ حرف النِّداء يختصُّ بالأسماء[(٢)].

ومثَّلَ له الطَّاهرُ بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه [(٣)] بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠].

فإنَّ "حرف النِّداء هنا لمجرَّد التَّنبيه على خطر ما بعده ليصغي إليه السَّامع، وكثر دخوله في الجمل المقصود منها إنشاءُ معنىً في نفسِ المتكلِّم دون الإخبار، فيكون اقتران

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٣٥٣)، الإتقان (٢/١٠٧).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/٣٢٥)، وقد ذكر ذلك أبو السُّعود في (تفسيره) (٦/٢١٤)، وذكر هذا المعنى أيضًا ابن عجيبة في تفسيره (البحر المديد)، حيث قال: "الياء [هنا] لمجرد التَّنبيه، من غير تعيين المنبَّه، أو المنبَّه محذوف، أي: يا هؤلاء". البحر المديد (٤/٩٣).

(٣) قال أبو البقاء العكبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التَّقدير: (يا حسرة احضري هذا أوانك)، وهو نداءٌ مجازيٌّ، ومعناه: تنبيه أنفسهم لتذكير أسباب الحسرة؛ لأنَّ الحسرة نفسها لا تطلب ولا يتأتَّى إقبالها، وإنما المعنى على المبالغة في ذلك حتَّى كأنَّهم ذهلوا فنادوها، ومثل ذلك: (نداء الويل) ونحوه، ولا يخفى حسنه. التِّبيان في إعراب القرآن (١/٤٩٠)، روح المعاني (٤/١٢٥)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٤/٤٧)، وقد سبق بسط هذه المسألة.

ذلك الإنشاء بحرف التَّنبيه إعلانًا بما في نفس المتكلِّم من مدلول الإنشاء كقولهم: (يا خيبة)، و(يا لعنة)، و(يا ويلي)، و(يا فرحي)، و(يا ليتني)، ونحو ذلك"[(١)].

وقال في موضع آخر: "أصلُ هذا النِّداء أنَّه على تنزيلِ المعنى المثيرِ للإنشاء منزلةَ العاقل فيقصد اسمه بالنِّداء لطلب حضوره. فكأنَّ المتكلِّم يقول: (هذا مقامك فأحضر)[(٢)]، كما ينادي من يقصد في أمر عظيم، وينتقل من ذلك[(٣)] إلى الكناية عمَّا لحق المتكلِّم من حاجة إلى ذلك المنادَى، ثمَّ كَثُرَ ذلك وشاع حتَّى تنوسي ما فيه من الاستعمال والكناية، وصار لمجرد التَّنبيه على ما يجيء بعده، والاهتمام حاصل في الحالين[(٤)]"[(٥)].

ورجَّح أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (البحر) كونها للتَّنبيه، قال: "والأصحُّ أنَّ (يا) في قوله: ﴿يَا لَيْتَ﴾ حرفُ تنبيهٍ لا حرف نداء والمنادى محذوف؛ لأنَّ في هذا حذف جملة النِّداء وحذف متعلَّقة رأسًا[(٦)]، وذلك إجحاف كثير"[(٧)].

أقول: ومن العلماء من جوَّز أحد الأمرين، قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام:٢٧]: "(يا) للتَّنبيه أو للنِّداء، والمنادى محذوف، أي: (يا قومنا) مثلا"[(٨)].

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٣/٢٨). فهذه الأقوال إنشاءات؛ لأنَّه لا نسبةَ لمدلولها في الخارج.

(٢) أي: إنَّ وجود المكان اللائق بالمنادَى هو الذي أثار الإنشاء في نفس المتكلِّم..وما يثير الإنشاء في نفس المتكلِّم أمورٌ كثيرة، ومن أوضحها مثلا إذا دهم المنادَى خطرٌ فيقال له تنبَّه أو احذر...

(٣) أي: من حقيقة النِّداء.

(٤) أي: في كلٍّ من الكناية والتَّنبيه..

(٥) التَّحرير والتَّنوير (٨/٢٣).

(٦) حيثُ حذف المنادَى، وتقديره مثلا: (يا قومنا ليت..)، وكذلك حذف ما يريد منهم..

(٧) البحر المحيط (٤/٤٧٦). ورجحَّ الشَّيخ الغلاييني هذا الرَّأي، وهو كونها (حرف تنبيه)، وذكر أنَّه المعتمد عند المحقِّقين. الدُّروس العربيَّة (٢/١١٩). وينظر في ذلك: روح المعاني (١٩/١٩١). وانظر: تفسير أبي السُّعود (٦/٢٨١)، تفسير القرطبي (١٣/١٨٦).

(٨) روح المعاني (٧/١٢٨)، وانظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد (٣/٦١٨).

ولعلَّ ما يترجَّح هو أنَّ الأمرَ فيه شيءٌ من التَّفصيل، وهو أنَّ تقدير المنادى محذوفًا في كلِّ ما وقع فيه حرف النِّداء قبل فعل الأمر أو جملة الدُّعاء بسبب وقوع النِّداء قبلهما في فصيح الكلام، وذلك نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]، ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [يوسف:٩٧][(١)]، ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ﴾ [القصص:٣١][(٢)].

فإذا وجدنا (حرف نداء) قد وليه (فعلُ أمر) أو (جملة دعائيَّة) علمنا أنَّ المنادى بحرف النِّداء محذوفٌ لكثرة ما رأينا مثله مذكورًا في الكلام، فأمَّا إذا وجدنا حرف النِّداء قد وقع بعده: (ليت) أو (رُبَّ) فالرَّاجح أن نجعل هذا الحرف دالا على التَّنبيه؛ لأنَّه لم يكثر وقوع المنادى مذكورا قبله.

ومنهم من مثَّل للتَّنبيه[(٣)] بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلا يَا اسْجُدُوا﴾ [النمل:٢٥]. فـ (يا) في هذه المواضع (حرف تنبيه)، لا (حرف نداء). هذا مذهب قوم من النَّحويين. قال بعضهم: وهو الصَّحيح. وذهب آخرون إلى أنَّها في ذلك (حرف نداء)، والمنادى محذوف. والتَّقدير: (ألا يا هؤلاء اسجدوا)، و(ألا يا هذان اسقياني). وكذلك تقدَّر في سائرها. وضُعِّفَ بوجهين:

أحدُهما: أنَّ (يا) نابت مناب الفعل المحذوف، فلو حذف المنادى لزم حذف الجملة، بأسرها. وذلك إخلال.

والثَّاني: أنَّ المنادى معتمد المقصد، فإذا حذف تناقض المراد.

---

(١) وقد وقع هنا قبل جملة الدُّعاء من حيث معناه الشَّرعي.

(٢) وقد وقع هنا قبل جملة الدُّعاء من حيث معناه اللُّغوي.

(٣) وقد سبق بيان ذلك مفصَّلًا..

وذهب ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التَّسهيل)[1] إلى تفصيل في ذلك. وهو أن (يا) إن وليها أمر أو دعاء فهي حرف نداء، والمنادى محذوف. وإن وليها (ليت) أو (رب) أو (حبذا) فهي لمجرَّد التَّنبيه[2].

(١) التَّسهيل، لابن مالك (٣/٣٨٩ – ٣٩٠).

(٢) انظر: الجنى الدَّاني في حروف المعاني (ص:٣٥٧ – ٣٥٨)، وانظر: الكليَّات (ص:٩٧٩)، ومغني اللَّبيب (ص:٤٨٩)، التَّسهيل، لابن مالك (٣/٣٨٩ – ٣٩٠).